شخصية الرسول الكريم في شعر محمد الهاشمي

الدكتور سالم أحمد الحمداني
استاذ مساعد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الحديث في الشعر عن شخصية الرسول الكريم (ص) قديم في ادبنا العربي ، فقد وقف الشعراء المسلمون منذ أطل فجر الدعوة الاسلامية على الجزيرة العربية ينافحون عن الدين الجديد ، ويردون سهام اعدائه بالعاطفة الحارة ، والشعور الصادق ، ولم يقف تفكيرهم بالدعوة الجديدة او انشغالهم ببناء صرحها العتيد، بينهم وبين تعبيرهم عما كانت تكنه قلوبهم بالاخلاص للدين والحب لرسول الله (ص) . ولقد كان في شخصية الرسول الفذة ، وما انطبعت عليه من قيم اسلامية رفيعة ، ومثل إنسانية عالية ، ماحفز اولئك الشعراء على أن يجعلوا منها نسيجاً متيناً لأفكارهم ، ومجالا رحباً لمعانيهم ، فاذا بتلك القيم والمثل تتحول قصائد تمتلك أسمى مشاعر الصدق ، وأنبل عواطف الحب ، واذا هي تصبح بعد ذلك لازمة من لوازم الشعر الديني، فتكون المدحة النبوية شرطاً من شروط القصيدة الدينية ، أو هي تتخذ على أقل تقدير ، وسيلة إلى التقرب إلى شخص الرسول الكريم ، وطلب الشفاعة منه ، وليس أعظم وأصدق من المدحة التي تخلو من كل غرض الا من الحب الذي لاتشوبه شائبة ، ولايقلل من صدقه شيء ، بل ليس أحق بالصدق من قصيدة تخلو من الزيف والتكلف ، وتبتعد بصاحبها عن ضعف الانفعال . ولقد آلت قصائد الشعراء في الدفاع عن الرسول وعن دعوته السمحة إلى ماهو اكثر وأبعد ، بل انها اتجهت في حالات تأزم أوضاع الامة — على الخصوص — اتجاهات صوفية خالصة ، فانتهت عندهم إلى مواجد صوفية تعبر عن اسمى غايات الحب والوفاء لشخص الرسول الكريم ، كما نجد ذلك عند البوصيري وغيره من الذين نهجوا نهجه ، فأتوا على قصائده بالتشطير والتخميس والتسبيع ، وانتهت عند فريق آخر إلى شطحات صوفية او مايشبهها ، حتى وجدناهم يعبرون عن مواجدهم تلك بما يعبر عنه الشعراء الغزلون في تصويرهم المادي المحسوس، وكانهم لم يجدوا غير الفاظ الغزل المباشر مادة لنسيجهم كما يرى ذلك نيكلسون في كتابه (التصوف الاسلامي) يقول نيكلسون في معرض حديثة عن الغزل الصوفي والغزل المادي « وكثيرا ماينشابه الفرعان في الظاهر ، إلى حد أننا لم نقف بطريقة ماعلى غرض الشاعر ،لانستطيع التمييز بين قصيدتين ، احداهما يتغنى صاحبها بالغزل الانساني والأخرى بالحب الالهي ، فاذا قيل لم ذهب الصوفية إلى هذا الحد في استعمال لغة الحب ورموز المحبين ؟ كان الجواب أنهم لم يجدوا وسيلة أقوم ولاأقدر على التعبير عن مواجدهم واحوالهم من الشعر» (١) :

(١) نيكلسون : التصوف ص٩٠ .

وفي ديوان ابن الفارض(تبدو قصائده التي وكأنها من قبيل الشعر الغزلي العذري الانساني اكثر عدداً من قصائده التي نظمها بلسان الذوق الصوفي والوجد الروحي) (١) .

وعلى هذا سار كثيرون ممن وصفوا الرسول أو تحدثوا عن شخصه الكريم . ولهذا وجدنا المديح النبوي عند الكثيرين ، يمثل نوعاً منفردا في التعبير ، له قاموسه اللغوي الذي لانجد له مثيلا عند آخرين ، بل اننا نجد مثله عند أصحاب الغزل المادي ، ومن هنا فاننا نعتقد ان مثل هذا الاستخدام في اللغة يمثل تطورا ذا قيمة ، في بناء القصيده العربية .

والملاحظ في مثل هذا الغزل حقا أنه يؤكد على التصوير المادي ويكاد أن يطغى أحيانا على التصوير المعنوي. ومهما تكن الظروف التي تحكمت بهذا النوع من الوصف أو الغزل ، فان الذي يهمنا أن الكلام عليه في الشعر العربي قد استمر وامتد إلى عصرنا هذا ، عند نفر من الشعراء الذين اتجهوا بفكر القصيدة العربية اتجاهاً دينيا محضاً منطلقين في ذلك من ثقافتهم الدينية ، أو عند آخرين ممن اختلطت عندهم هذه الثقافة بثقافة العصر واتجاهاته المختلفة . ومن هذا المنطلق اتخذت القصيدة الدينية عندهم منعطفاً جديدا ، فاذا هم يضمنون قصائدهم الدينية مشاكل العصر ومسائل الحياة الانسانية الجديدة . ولقد رأينا ذلك ينعكس على القصائد الدينية المحضة ، فاذا الحديث عن شخصية الرسول لايتناول صفاتها الجسمانية ولايتخذ من الوصف المحسوس سبيلا إلى حب الرسول ، وانما وجدناه يستلهم من شخصيته الكريمة ، معاني التضحية والفداء والصبر على المكاره ، ومنافحة الظلم ، والحث على طلب الحرية ، وغير هذه وتلك من المعاني التي تعني بتصوير حياة الانسان وصراعه مع قوى العسف والتخلف.

ولربما وجدنا بعض القصائد تقتصر على الكلام على شخصية الرسول الكريم فتجسد فيها معانيها النبيلة ، وشمائلها الكريمة وسجاياها الطيبة ؟ كما تجسد من الرسول معجزاته ودعوته وما يتصل بهما من عظمة وقدرة على التنظيم والعطاء :

وشاعرنا محمد الهاشمي يندرج تحت هذا الصنف من الشعراء الذين عنوا بشخصية الرسول (ص) ، فأوقف العديد من قصائد ديوانه الضخم على التغني بسيرة الرسول ، والفخر بمعجزاته والتباهي بما حقق للمسلمين وللانسانية كلها من عظيم الاعمال وما رسم لهم من سبيل الخير

(١) مصطفى حلمي : ابن الفارض سلطان العاشقين : ٢٩٢ .

وما أنجز خلال فترة نبوته من بناء شامخ ، وصرح عال ، وما ترك لأبناء أمته ماجعلهم ويجعلهم يفخرون به أمام الامم الأخرى . كما تناول بالتفصيل كل مايتعلق بدعوته الكريمة وما حصل له خلالها من معجزات انفرد بها دون غيره من الأنبياء والرسل :

ولم تكن معالجته لذلك كله مثل معالجات العديد ممن أشرنا اليهم ، فقد ساعدته ثقافته العصرية ودراساته الحديثة ، وتصوره العميق ، ونظرته البعيدة للأمور وبيئته المتطورة ، واتصاله بعلوم العصر ، ومناهجها المختلفة ، ساعده ذلك كله على ان يستمد من العصر وروحه المعطيات الكثيرة ، ويحققها في الكلام على الرسول الكريم ، كما ساعده على أن يحقق الملاءمة بين روح العصر وبين معاني شعره وأفكاره :

وثقافة شاعرنا مختلفة الجوانب متعددة الاطراف ، فله في ثقافته (محصول عال جيد من مختار شعر العرب ، وروائع خطب بلغائهم ، فحفظ أكثر أراجيز العرب ، وشعر المتنبي والبحتري والمعري ، واستأثر اهتمامه بشعر الأبيوردي ، فحفظ شعره كله ، ثم تعلم الفرنسية وأجاد تعلمها بحيث أنه نقل جملة من قصائد شعراء فرنسا اللامعين في أوج نهضتها الأدبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ، أمثال هيجو ولامارتين وكوتيه وغيرهم إلى العربية) (١) .

ولم تقتصر ثقافة الهاشمي الأدبية على هذا فحسب ، فقد تعلم الفارسية واعجب منها بالخيام ورباعياته فترجمها ونشرها في مصر . ومن الشعراء الذين أعجب بهم (وفضلهم على من سواهم من المعاصرين ، الرصافي وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة ، وشوقي عنده أفضل المعاصرين ... وله مع محمد مهدي الجواهري مطارحات لطيفة نشرها الجواهري في ديوان (بين الشعور والعاطفة) المطبوع سنة ١٩٢٧) (٢) . واذا عرفنا أن له من الآثار المطبوعة سبعة ، وهي مابين الأدبية والقانونية ، وان له من المخطوطات سبعة ايضا ومنها القصص الشعري والملاحم والأراجيز والترجمة ، واذا أضفنا إلى هذا كله دراسته في القاهرة ونيله شهادة الحقوق في بغداد سنة ١٩٢٤ ، ومزاولته العمل في الصحافة ثم القضاء بعد ذلك ، اذا عرفنا هذا كلة وحاولنا أن نحقق الصلة بينه وبين شعره ، استطعنا ان نصل إلى تعليل للاسلوب الذي وصف ومدح به الرسول الكريم (ص) ، وهو اسلوب يتميز على أساليب العديد من الشعراء الذين عالجوا الموضوع نفسه .

(١) عبدالله الجبوري : ديوان محمد الهاشمي البغدادي ص٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص٢٨

ولعل من المفيد أن نوضح أن شخصية الرسول الكريم في شعر محمد الهاشمي تتضح في صورتين :

الأولى : مارأيت أن أسميها بـ (الصفات المعنوية) ، واقصد بها الصفات المعنوية التي تحلى بها الرسول الكريم ، والتي اكدت شخصيته الفذة التي اختارتها العناية الالهية لتقود المجتمع البشري ، وتصل به إلى عالم العدل والخير والسلام . وقد أشار الشاعر إلى العديد منها مثل ، أمانته وكرمه وعدله وعظيم خلقه ، واعجاز بلاغته وصفاء فكره ورحمته بالفقراء وايثاره الزهد ، وغير هذه وتلك مما يجسد شخصية الرجل الأمثل .

والثانية : ماله علاقة بشخصه ، كولادته ونشأته وسيرته وعلمه وعبقريته .

ومن هذا القبيل ، ماله علاقة بدعوته ، كثورته على الفساد ، وثباته على المبدأ ، وقيادته الأمة ، وبنائه الدولة ، وانشائه الدستور وتوحيده الأمة .

ومنها ايضا قضية اسرائه إلى المسجد الاقصى ، وعروجه بعد ذلك إلى السماء ، وقد أطال الشاعر في تحليل هذه الرحلة ، وصور ماحدث فيها رسول الله (ص) وهو في طريقه إلى إلى السماء ، فأشار إلى البراق الذي حمله وإلى سرعته ووصف مامر به وما شاهده وما لقيه وغير هذا وذاك مما أتت كتب السير والتاريخ به .

الوصف المعنوي

كثيرون هم الشعراء الذين وصفوا الرسول وصفاً معنويا ، انتزعوه أحيانا مما وصفه به الله تعالى في القرآن الكريم ، وأخذوه أحيانا مما فصلت فيه كتب السير والتاريخ .

وقد تناول الشاعر محمد الهاشمي وصف الرسول (ص) من زاوية تصوره لهذه الشخصية الفذة ومن خلال اطلاعه على ماذكرنا من مصادر ، دون ان يبالغ في وصفه ، كما فعل شعراء الصوفية على العموم ، أو من نهج نهجهم في ذلك .

ولد الشاعر محمد الهاشمي في بغداد سنة ١٨٩٨ م في بيت علم وأدب ، ودرس القرآن على يد أخيه عبد المجيد الهاشمي – كما درس اللغة على يد العلامة علي علاء الدين الآلوسي والفقه على يد العلامة محمود شكري الآلوسي ونظم الشعر وهو في سن لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وقد سافر إلى مصر لتنظيم في الجامعة المصرية ويدرس على ايدى الرواد الاوائل من امثال علي المرصفي ومصطفى القاياتي والشيخ محمد الخضري . وقد اسهم في الثورة العربية التي قادها الملك حسين بن علي . وبعد عودته إلى العراق انهى دراسة في الحقوق وتقلب في عدة مناصب كما عمل في البداية ميدان الصحافة . توفي في بغداد سنة ١٩٧٣ م بعد ان ترك مجموعة من الآثار وديوانا مطبوعاً .

ولذلك جاءت معظم أوصافه منسجمة مع تفكيره المعتدل، وربما تلونت بألوان ثقافته الواسعة وغزارته فيها.

ومن ذلك وصفه له بالكمال ، ومن كانت صفاته الكمال فقد تميز على غيرهمن خلق الله بمعدن خاص (خالص) كله نقاء وصفاء :

صورت من روح الوجود خلاصة وسواك طين في الصعيد (١) وماء
بل خص خلقك وحده بكماله فامتاز نعتك ماشاء وشاؤا
لكن معدنك الخلاصة مفرغا فيها الصفاء وفي الصفاء صفاء (٢)

ولست أعتقد أن الشاعر يحيد عن الصواب ، ألم يخص الله نبينا الكريم بما لم يخص غيره من البشر (وانك لعلى خلق عظيم) ويبدو لي ان هذا التميز للرسول على غيره لم يكن فكرة سريعة خطرت للشاعر ، دون أن يكون لها تأكيد عميق في نفسه ولذلك فقد كررها في اكثر من موضع في شعره ،ويكاد هذا التكرار يكون صورة واحدة لسابقة:

أقسمت لست من الأنام وجنسهم يبر نعتك بانعقاد يميني
أنت اللباب وهم قشور والذي ذهب الجناة به هشيم غصون
أنت السلالة من صفاء لست من جسد ولست سلالة من طين

وعلى الرغم مما يبدو في هذه الأبيات من مبالغة، الأ أنها تبقى دون مبالغات الصوفية بكثير ، وأغلب الظن أن الشاعر أراد بها تكريم شخص الرسول (ص) بما يليق به، وللعاطفة المتدفقة اثرها في ذلك .

ويشير ضمن الأبيات نفسها إلى جلال قدر الرسول وعظم نفسه فيقول:

نفس كأعظم مارأيت جلالة ميمونة في عالم ميمون
معناك أعظم أن يحيط بحده سعة البيان وقدرة التبيين (٣).

ولعل من أشد الصفات المعنوية التي طبعت نفسه الكريمة (ص) على العظمة والايثار والتضحية واحتقار اللذات ، والبعد عن الشهوات ، صفة الزهد التي رافقت سني حياته كلها وقد صار فيها (ص) مضرباً للمثل في العفة وعلو النفس وجلال القدر ، ومن هذا الاعتبار يرى

(١) الصعيد : التراب .
(٢) ديوانه : ٣٥٦ .
(٣) ديوانه : ٣٦١

محمد الهاشمي أن الرسول الأعظم يعتبر مضرباً للمثل الأعلى ، وهو مثل عجزت الأقلام عن التعبير عنه :

ياضارب المثل الأعلى لنا عجـــزت عنه البراع ولم تعجز عن الحصـــر
وكيف تصوير من كانت شمائلـــه فوق المدارك والأذهان والصـــور

بعد هذا يحاول الشاعر ان يجسد زهد نبينا (ص) فيضرب له أمثلة من سلوكه في الزهد ، من ذلك مثلا أنه (ص) كان :

مع المساكين مسكين لـــــه قـدم على الأرائك والتيجان والســـرر

ويشير إلى عزوفه عن زينة الحياة الدنيا واحتقاره لها ، لالشيء الا لزهده فيها :

مازال يحتقـــر الدنيـــا وزينتهـــا زهدا وفي يده الدنيا من الخطـــر

ويرى أن هذا موقف إنساني يجسد معنى الايثار ، بل ان هذه المشاطرة للفقراء في شظف العيش لتدل دلاله واضحة على أن في ايثار الرسول (ص) موقفاً انسانياً لايصل إلى مستواه مفهوم الاشتراكية الذي يتباهى به رواده في هذا العصر .

يعطيك من سنن الايثار ماعجـــزت عنه اشتراكية في عهدها النضـــر

ويضرب شاعرنا لهذا المفهوم الانساني الخالد أمثلة من سلوك محمد (ص) ومن عفته وزهده :

يملي دروساً وما الاثراء يعجبـــه على غني يساويـــه بمفتقر
فلا ترى من غني ظالم أبـــــداً ولاترى مـــن فقير غير مجتبـر(١)

حقاً لقد استطاع شاعرنا أن يجسد هذه المثل الانسانية السامية التي كان رسول الله (ص) يحياها ويمارسها مع صحبه وأبناء أمته وحقاً ان هذا السلوك الفذ ، دروس تملى على ابناء الأمة ليتذكروا بها ويتدبروا ويتمثلوا ،ان الشاعر لم يتخيل صفات يضيفها على شخص رسول الله (ص) بدافع من طغيان عاطفة الحب له فقط وانما هو ينتزعها من حياته وسلوكه ومن تعامله مع الناس ، ومن صبره على المشاق وثباته على المبدأ ، منذ كانت الدعوة وليدة تحبو وتهتز ولاتقف على بنيان ثابت سوى ايمان محمد وا صراره على الحق ، اما كان بالامكان أن يقبل بعرض قريش ليصير أكثرهم ثراء واوسعهم جاهاً واشدهم عزا؟ . ان العديد من الصفات الحميدة يمكن ان تجسد عظمة محمد وشخصيته اللامعة ، لكن شاعرنا امتلك القدرة على تجسيد أقواها تأثيراً واعظمها تعبيراً . ان شخصية تمتلك هذه الصفات التي عرضها الشاعر

---

(١) ديوانه : ٣٣٩

لجديرة بالسمو والعظمة والرفعة ، وان العاطفة التي لم يدفع لها ثمن غير الحب الصادق والتوجه العميق لجديرة هي الأخرى ان تؤكد صدق هذا الشاعر .

وقد امتلك محمد الهاشمي قدراً جيداً من الدقة في التصوير ، فهذا الزهد الذي تحدث عنه في الأبيات السابقة يتكرر في قصيدة أخرى ، ولكن صورته فيها تتعدد إلى مجموعة من الصور الدقيقة ، وهي منتزعة كلها من حياة الرسول وسلوكه الخاص وهي تمثل بمجموعها صورة للشخصية العظيمة التي ترتفع على شهوات الحياة وزينتها ، لامن أجل التباهي ، ولا تم عن افتعال في الموقف ، وانما من أجل موقف تتجسد فيه القيم الانسانية الرفيعة التي تعكس حياتها البسيطة ، والتي اشارت اليها كتب السير ، ومنها أنه (ص) كان يرقع نعليه بيده ، وانه كثيراً ماكان يبيت على الطوى ، وانه ماكان ليجعل من المال والسعي وراءه وسيلة للعيش والثراء ، وانه كثيرا ماكان يهب للمعوزين ماهو بأمس الحاجة اليه كل هذه الصور الدافقة بالمثل الإنسانية يعرضها الشاعر مجزأة لتجتمع أخيرا في إطار صورة الزهد التي أشرنا اليها :

وزهدت حتى قد شددت على الحشا حجرا أهذا الزاد أين الماء ؟
وخصفت نعلك في يديك ولو درى إسكافها ذهبت بـه خيلاء
من يستهين المال وهـو ووفره هبة وما ملكت يداه عطاء
نظر الحيـاة فأعجبتـه كأنهـا من صنع ناسجة الفناء رداء
عف عن الدنيا فلوهـي أدبرت لدعا وقال على قفاك عفاء (١)

هكذا يضع الشاعر صفات الرجل القائد والمعلم ، إنه استطاع أن يجسد في قائد الأمة مايؤهله لأن يكون القدوة الصالحة ، إن محمداً في هذه الأبيات انسان كبقية الناس لايتميز عليهم بمال أوجاه أو سلطان ،إنه مع فقيرهم وغنيهم ،صغيرهم وكبيرهم ، يقودهم بالحكمة ويرعاهم بالحنكة، ويتقدم عليهم بالبطولة والشجاعة ، وهو رائد لهم في كل شيء :

والقائد البطل المحنك والوغى تلد المنية واسمها هيجاء

وهو لايقودهم بما يمتلك من شجاعة واقدام فحسب، إذ أن القيادة الحكيمة قوة مع حكمة ، تقدر المواقف وتزن الأمور :

والفيلسوف المطمئن وباطل في كل فلسفة مئى ورجاء

---

(١) ديوانه : ٣٥٧

ولكي تكتمل أبعاد شخصيته القيادية ، لابد أن يتوافر في نفسه الحرص على أبناء أمته والاهتمام بمشاكلهم ،ولذلك فهو يشاطرهم كل شيء ،بل إنه ليحرص على سلامتهم كل الحرص، فهو بالنسبة اليهم :

عين لأعماها وأذن أصمها ويد تمس الداء وهو شفاء
الناثم اليقظان نام على الحصا وعلى التراب وحوله فقراء (١)

تلك هي صفات محمد (ص) ، انها بحق الصفات التي بوأته أسمى مكان وأعز موقع ، وهي هي التي مكنته من قيام دولة الاسلام ، التي اتسعت رقعتها وامتدت أطرافها إلى الهند والسند والصين وفرنسا. وأشار إلى أمانته فقال :

وفريدة حفظت بكنز حفيظها وأمانة وضعت بكف أمين

وإلى مساعدته الآخرين فقال :

ومعين أرملة ومكسب معدم ومفيد عائلة بغير معين (٢)

ومن أشهر مااشتهربه رسول الله(ص)حلمه مع السفهاء،وعفوه عن المسيئين ورحمتهبهم، كما عرف عنه (ص) بعده عن الانتقام ممن أساء اليه، وله في هذه المعاني مواقف مشهودة، ولعل أشهرها عفوه عند فتح مكة عن الذين أساؤا اليه وإلى المسلمين، وقوله لقومه آنئذ «اذهبوا فأنتم الطلقاء» لدليل على رحمته وحلمه وطيب نفسه .

وقد جسد محمد الهاشمي هذا المعنى ببيت واحد يقول فيه :

إمام القبلتين وفيك حلم وعندك رحمة قبل النكال (٣)

وعن كماله وجماله ونور طلعته يقول فيه :

في كل عهد أضاءت منك شمس هدى من بعد يوشع لم تكسف ولم تغر
شقت على ثاقب الأفكار غايتها فأينما تتحر الدور تنبهر

ثم يقول :

منك الكمال ومنك النقص نحسبه منه يانبوغ هنا حيران واعتبر
فإن نطقنا جميلا فهو مقتبس منك الجمال ومنا عذر معتذر

(١) ديوانه : ٣٥٩
(٢) ديوانه : ٣٦١
(٣) ديوانه : ٣٦٦

تحيرت فيك ألبـاب وأنشـــدة أبدعت في صغر وصفاً وفي كبر(١)

وأحسب ان هذا الوصف الأخير يلتقي مع وصف الكثيرين ممن وصفوه من شعراء الصوفية ومن جرى على نهجهم . ولاشك ان هذه المعاني ليست جديدة ، وانما هي تتكرر على على ألسنة الكثيرين من الشعراء وهذا أمر طبيعي ، لأن هذه الأوصاف هي سمات مشتركة حام حولها اغلب الذين وصفوه (ص) وعظموا قدره ،ولعلها صارت لازمة من لوزام مدح الرسول ووصفه .

ولعل من المفيد أن نشير إلى ان هذا الشاعر يمتلك قدرة جيدة في الوصف ، وهو وصف يمتاز بالايجاز الذي يجمع فيه الشاعر اكثر من صفة في بيت واحد كهذا البيت الذي يقول فيه متحدثا عن الرسول :

يعلم العلم بـالاخـلاق مقتـرنـا والعلم ان فارق الأخلاق ذو ضرر (٢)

فقد جمع في شطره الأول بين صفتين للرسول هما ، العلم والاخلاق واعقبهما في الشطر الثاني بما يشبه الحكمة والموعظة .

وحين يميز الشاعر نبينا(ص) على غيره من البشر يضعه في منزلة لاترقى اليها عبقرية العباقره :

دون الإله وفوق الناس منـزلـة ياعبقرية غضـــي ثم وانتهـــري(٣)

وفي رأيي ان هذا ذكاء من الشاعر ، لأن منزلة النبوة أسمى بكثير من منزلة العبقرية ، ولا يصح عند أهل العلم ان يوصف النبي (ص) بالعبقرية .

ومن خلال اشارته إلى اخلاص الرسول لدعوته ، يصل إلى تعليل لدعم ربه له جزاء اخلاصه :

من كان أوله الاخلاص تغـــن لـه عناية الله عن عون وعن وزر (٤)

وهو تعليل منطقي مقبول يتفق مع العديد من الآيات التي أكدت حفظ الله لدينه وتأييده لرسوله .

ويبقى من هذا الجانب ان نشير إلى ظاهرة طالما نلاحظها لدى الشعراء الذين تبوّؤا مناصب في الدولة ، أو امتهنوا في حياتهم مهنه فقد لاحظ الباحثون على سبيل المثال كثرة ورود الفاظ

---

(١) ديوانه : ٣٤١

(٢) ديوانه : ٣٢٧

(٣) ديوانه : ٣٣١

(٤) ديوانه : ٣٣٣

الطب في شعر الشاعرين ابراهيم ناجي و(أحمد زكي أبو شادي)،وكلاهما طبيب معروف، وتلاحظ هذه الظاهرة في بعض شعر محمد الهاشمي، اذ تأثرت بعض الفاظه وتعبيراته بمهنة القضاء ومن ذلك قوله :

في كفة الميزان ماعدلت يـــد باك في يـد التاريخ من موزون (١)

ومـن ذلك قولـه:

حكمت حيـا وميتا في ضمائرنـا فشأن كل فؤاد شأن مقتصـر (٢)

وقوله وفيه مايجب أن يتحلى به القاضي كالحلم والرحمة :

إمام القبلتيـن وفيـك حلـم وعندك رحمة قبـل النكـال(٣)

على ان الجانب الذي استأثر بشعر شاعرنا اكثر من هذا الجانب هو ماله علاقة بدعوة الرسول وسيرته ، وما حدث له طيلة سني هذه الدعوة من أحداث وما مر به من مواقف ، أو أنجز من اعمال . لقد رسم الشاعر محمد الهاشمي للرسول صورة تامة متكاملة الأبعاد،وتتبع حياته منذ مولده حتى وفاته ، وأكد في هذا التصوير على كل ماكان له صدى في الاسلام ، او تأثير في حياة الأمة ، فقد رأى الشاعر مثلا ان ولادته (ص) كانت حدثا مهماً له مغزاه في حياة العرب التي تخبطت واضطربت وصارت بحاجة ملحة إلى من ينقذها من واقعها المتردي ولذلك يرى الشاعر ان ولادة محمد (ص) هي ولادة لمجد أمة فيقول :

يوم الـولادة فيـه ألـف ولادة للمجـد فهـو وأمـه نفساء

كما يرى ان هذه الولادة قد انارت الجزيرة العربية بأشعة من نور بعد ان كانت تسودها الظلمات :

وعلى الجزيـرة سـال نـور بـارد كادت عليـه تبـرد الرمضـاء(٤)

وفي شعر الهاشمي ترتبط ولادة محمد(ص)بالنور الذي أشرق على الأمة العربية فحول حياتها من الجاهلية الجهلاء إلى العزة القعساء ، ولاشك ان التحول الذي حققته رسالة محمد،قد أفضى بحياة العرب إلى غير ماكانت عليه قبل مجيئه ، ومن هذه الحقيقة ينطلق الشاعر معبراً عن أثر ولادة رسول الله فيقول :

---

(١) ديوانه : ٣٦١

(٢) ديوانه : ٣٤١

(٣) ديوانه : ٣٦٦

(٤) ديوانه : ٣٥٦

والدار في الشعب بيضاء الجوانب من نور النبوة لامن نورة المدر

وفي مجال النبوة هذا يشير الى مرضعته حليمة السعدية فيقول :

ونافست فيك عن ظئر وحاضنه وأرضعتك كريم الدر بالدرر (١)

وقد تتبع بعض جوانب نشأته ، فأشار الى رعيه الأغنام :

هناك رأيت عصا الراعي يهش بها خيراً من السيف عند الأمن والذعر (٢)

والى أميته فقال :

وأدركت فكرة الأمي ناشرة روح الحياة بعظم دارس نخر (٣)

ولا شك أن الشاعر هدف بهذه الاشارات الى تعظيم الرسول (ص) واكباره ، لأن ما أنجزه رجل أمي يرعى الأغنام انما يدل على هذه العظمة الفريدة . ويتحدث الشاعر عن مرحلة النبوة فيشير الى انبثاق دعوتها التي انتشلت العرب من واقعهم المتخلف ، ويرى ان هذه الدعوة قد بعثت فيهم الحياة من جديد :

بعثت موتى نفوس من مراقدهم ترمي بأيديهم التيجان كالأكر (٥)

ويشير الى أثر القرآن الذي أدهشهم وبهر نفوسهم بأياته الخالدات، وسوره البينات ، ولا شك ان هذه الاشارات مستمدة تماماً من الأخبار التاريخية ، والسيرة النبوية ، التي تحدثت عن تأثير القرآن في نفوس العرب وتحديهم لهم بقوة بلاغته وروعة أسلوبه وجمال جرسه ومتانه بنائه . ومن هنا تأتي أهمية الاشارة الى القرآن وأثره ، يقول الهاشمي :

وحين يستنزل القرآن يدهشهم بخالدات من الأحكام والسور (٤)

وعلى الرغم من أن الشاعر قد ألقى الينا ببيت واحد فقط ، الا أنه قد ترك لنا مجال المشاركة واستنباط المواقف ، وخصوصاً ان هذه المواقف مستمدة من تاريخ الدعوة ، ومن سيرة الرسول وهذه المسألة في مجال الشعر لها أهميتها ، لأن الشاعر في كثير من الأحيان يكتفي بالاشارة السريعة ثم يترك المجال للقارىء يتمتع بأكتشاف الجوانب الخفية في القصيدة :

---

(١) ديوانه : ٢٢٦
والظئر : الحمل .
(٢) ديوانه : ٣٣٠
(٣) ديوانه : ٣٣٠
(٤) ديوانه : ٣٢٨
(٥) الأكر : مفردها أكره وهي الحفره .

وفي مجال القرآن ايضاً ، اشار محمد الهاشمي الى تلقي (محمد) الآيات القرآنية عن طريق الوحي فقال :

هنا رأيت زعيم الغيب في فمه يلقى فم الله ما يلقى من السور (١)

وفي حديثه عن فجر الدعوة تطرف الى ذكر غار حراء ، وما حدث فيه لرسول الله (ص) مع جبريل عليه السلام . وفي رأينا أن أهمية الغار لاتكمن في النبأ الذي تلقاه من جبريل فحسب ، وانما تبدو في ما كان يخلو به الى نفسه يفكر ويفكر ، حتى انتهى تفكيره بوصول الوحي وتبليغ الرسالة ، ولذلك فأن الاشارة الى غار حراء لها أهميتها ، لأنها تتيح للدارس ان يمتد بتفكيره الى الصورة الرائعة التي منحها الغار لدعوة محمد (ص) :

وبريد أنباء السماء وأهلها بحراء قد لمس السماء حراء
لما تجاوز مستوى تفكيرهم قالوا هو الالهام والايحاء (٢)

ولعل من أعظم ما استطاعت الدعوة المحمدية ان تحققه بالنسبة للعرب هو توحيد أمتهم ، بعد ان كانت تطحنها الحروب وتمزقها الخصومات وتأكلها نيران الأحقاد وتفرقها الأهواء ، فلما جاء الاسلام أكد منذ فجر دعوته (ان هذه أمتكم أمة واحدة) (٣) (وانما المؤمنون إخوة) (٤) و(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (٥) . والقرآن يحض على الوحدة ، ويدعو الى نبذ الخصومات ، ولولا تلك الوحدة لما قام ذاك البناء ولا اتسعت تلك الرقعة ، ولا زحف الاسلام الى مشارق الارض ومغاربها . ومن هنا جاء اهتمام شاعرنا بربط الوحدة بشخص رسول الله واعتبارها من منجزاته العظيمة واهدافه الكبيرة ، وجهوده النبيلة :

ولكن أية وحدة أشار اليها الشاعر ؟ انها وحدة تقوم على مفهوم خاص يجتمع في اطاره كل عنصر من الجنس واللغة واللون ، وهي عناصر مختلفة ومتباعدة — كما يراها الشاعر — الا أن الدين هو الذي قرب بعضها من بعض ، وجمعها تحت راية الاسلام :

---

(١) ديوانه : ٣٣٢
(٢) ديوانه : ٣٥٧
(٣) سورة الانبياء الاية ٩٢ .
(٤) سورة الحجرات الاية ١٠ .
(٥) سورة آل عمران الاية ١٠٣ .

جمعت شعباً على التوحيد من امم شتى العناصر والاراء والنـعر •
اذا تباعدت الأنساب قربهم من نسبة الدين خط غير منكسر (١)

هذه اذن هي الوحدة الاسلامية كما استقرت في ذهن الشاعر ، والحق انها جاءت كذلك في القرآن الكريم، وأن الشاعر قد تمثلها تمثلا جيداً ، وآمن بها بعاطفة صادقة، واحساس عميق، ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ، أنه يلجأ أحياناً إلى انتزاع الفكرة من القرآن انتزاعاً لطيفاً كقوله :

ورأيت رابطة الجماعة قوة عقد القلوب بعقدها المرصون (٢)

فهو هنا يسير وراء الآية الكريمة (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) والجدير بالتقدير أن شاعرنا يقيم في نفسه فهماً عميقاً لمفهوم الوحدة الاسلامية ، فهو لم يكتف بما ألقى الينا ببعض عناصرها من مثل اختلاف الجنس والمذهب والنسب، وانما راح يقيمها على مفهوم آخر نبيل يكسر حدود اللون والسلالة، ليجتمع على كلمة (لا اله الا الله) وحدها ، وفي هذا المنطلق تذوب جميع الألوان لتتحد في لون واحد ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود وانما هو لون الاسلام، لون الايمان وحسب :

يا واحداً في الله فيك توحدت بيضاء أو صفراء أو سوداء
جمع القلوب على الألوهة وحدها حلق السلاسل ما بها أجزاء (٣)

لقد قدم محمد الهاشمي صورة للوحدة التي اجتمع تحت ظلها أجناس مختلفة ، والوان متباينة ومذاهب متعددة ، وهي وحدة تستمد بناءها من مادة الاسلام، وهو بناء راسخ لا يقوى على محو آثاره أي شيء ، لأنه قائم على تلاحم تلك الالوان والاجناس والمذاهب التي أصبحت بمرور الزمن كتلة واحدة متماسكة، وزادها تلاحماً وتماسكاً أنها اجتمعت على دين الله،ومن هنا يرى الشاعر ان وحدة الاسلام التي رسخت قواعدها بفضل الرسول الكريم، هي تجربة فريدة تعجز عن بناء مثلها أية جماعة أخرى :

---

(١) ديوانه : ٣٣٢
(٢) ديوانه ٣٦١
(٣) ديوانه : ٣٥٨
• النعر : جمع نعرة : وهي لفظة استخدمت حديثا للدلالة على مايتصل بالمذاهب والعقائد . اما معناها القديم فلا يتفق مع ماقصد اليه الشاعر .

شرعت وحدك شرعاً عنه عاجزة مجالس اليوم من حزب ومؤتمر(١)

ولعل من أكثر المسائل صلة بسيرة الرسول (ص) قصة اسرائه ومعراجه ، فقد أفاضت في الحديث عنها كتب السير ، وأطالت الكلام عليها كتب التاريخ ، كما أنها من أكثر المسائل تأثيراً في آداب الغرب ، فقد تقصى حقائقها كثير من دارسيهم ، ونسج على منوالها آخرون،ولعل أشهرهم دانتي صاحب (الكوميديا الالهية) ومن هنا تأتي أهمية ذكر هذه القصة التي حدثت قبل الهجرة بعام واحد تقريباً ، ويبدو أن شاعرنا قد أعجب بها ، وتأثر بأحداثها ولذلك احتلت في شعره مكاناً مرموقاً .وكان طبيعياً أن يستمد أحداثها مما ورد في القرآن الكريم ومما روته كتب السير وبخاصة (سيرة ابن هشام) (٢) :

من سرى مثل طائر طار من مكة في ليلة إلى ايلياء
وروى أنباء السماء على الأرض فلله روعة الأنباء
طفرة صارت الثريا ثراها وغبار البراق في الجوزاء
كل أعجوبة تسابقها الأذهان إلا أعجوبة الاسراء (٢)

وهكذا يروي خبر البراق وهي الدابة التي حملت الرسول (ص) في رحلته تلك ، كما يروي قصة انتقاله هذه من المسجد الحرام إلى بيت المقدس (ايلياء) .

ويلاحظ أن الشاعر يؤكد أعجوبة الاسراء فيعتبرها فوق مستوى العقل البشري ، وهو بلا شك محق فيما يقول ، لأن هذا العقل لايستطيع تعليل إلا القليل القليل من ظواهر الكون أو أسرار الخلق الآلهي ، ويؤكد شاعرنا على هذا المفهوم ويعتبر مسألة الاسراء لغزا يثير الاذهان ويحير العقول ويفحم مسائل العلم ، ويبرر من جانبه هذا الاعتبار ، ذلك أن عملية الاسراء هذه تمت بشكل لاتستطيع حواس الانسان ولا عقله تفسيرها ، بل إنه يرى أن السرعة التي تم بها إسراء الرسول (ص) تفوق خطف البرق ، وتعوق شرر الكهرباء :

ذلك اللغز أفحم العلم ملغوز بسري جلالة وخفاء
سرعة لاتحس بالعين والاذن ولا تستنم • بالأعضاء

(١) ديوانه : ٣٣٢
(٢) انظر أحداثها في تهذيب سيرة ابن هشام ص١١٩ – ١٢٩ .
(٣) ديوان : ٣٧١ .
• تستنم: ترفع

سبقت باندفاعها خطفة البرق وعاقت شرارة الكهرباء (١)

وقد روى الشاعر أخبار صلاة الرسول إماماً بالأنبياء فقال :

وقم بالأنبياء فصل فيهم إماماً لاينازع في الكمال (٢)

كما قال في المعنى نفسه :

ومع الأنبياء صلى إماماً قدوة المقتدين لايستقيل (٣)

وفي هذين البيتين لايروي أحداثاً لقصة فحسب ، بل هو يهدف من وراء ذلك أن يرسم صورة لكمال الرسول وعظمته وريادته ولعله يفصح عن هذا التصور في إشارته إلى إمامة الرسول في صلاته مع الأنبياء :

ويلاحظ بصورة خفية أن الشاعر يؤكد في أكثر من مكان على اعتبار مسألة الاسراء عملاً خارقاً لايفوق العقول والاذهان وحسب وإنما يفوق نواميس الطبيعة ونظامها أيضاً:

سريت بلا زمان أو مكان وفي الأفق انتقلت بلا انتقال(٤)

وهنا نشعر ايضاً بما قد يؤول اليه هدف الشاعر في هذا البيت وهو مايريد أن يجسد فيه عظمة الرسول بهذا الحدث الخارق واللغز الغامض ، وهو معجزة حيرت الأذهان وأذهلت العقول ، بل إنها أدت إلى ارتداد العديد ممن أسلم إذ ذاك، ذلك أن رسول الله (ص) حينما (أصبح ، غدا على قريش فأخبرهم الخبر ،فقال أكثر الناس : هذا والله الإمر البيّن ! والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبله ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال: فارتد كثير ممن أسلم) (٥).

واذن فالقصة بحد ذاتها مذهلة وفريدة ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على تكريم الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم، وتؤكد عظمته وترفع شأنه ، وتعلي قدره، ذلك ان الله كرمه بما يليق بمقامه الكريم . والجدير بالملاحظة أن الشاعر جرى في تصويره لهذا الحدث

---

(١) ديوانه : ٣٧١ .

(٢) ديوانه : ٣٦٦ .

(٣) ديوانه : ٣٧٥ .

(٤) ديوانه : ٣٦٦ .

(٥) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام : ١٢٠ – ١٢١.

وراء ماروته كتب السير وكتب التأريخ — كما اسلفنا — فراح ينتزع منها أحداثها ويتابع مجرياتها، غير ان ما يؤآخذ عليه هنا، أنه التزم بتلك الأحداث التزاماً شديداً ، دون أن يضفي عليها من عنده ما يجعلها تبدو أكثر حيوية واشد إثارة ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين ممن عالجوا أمثال هذه الموضوعات . وأغلب الظن أنه قد تحرج من استخدام خياله الادبي لاعتقاده ان ذلك غير مباح له ولغيره فيما يتعلق بشخص الرسول ، أو الأحداث التي تمس دعوته، ولذلك جاء الخيال جافاً ، والعاطفة باردة ، وكاننا إزاء أحداث الدعوة الاسلامية وصاحبها دون أن نهتز لها أو ننفعل بها ومن هنا مرت معالجته لهذا الحدث مروراً سريعاً دون أن تترك في انفسنا لذة الاستمتاع ، وقد يخفف من هذا الذي أبديناه أن قصة الاسراء بحد ذاتها كانت رحلة قصيرة خالية من الأحداث الجسام التي تثير أخيلة الشعراء ، على عكس ما نجده في قصة المعراج التي تنوعت فيها الأحداث وطالت إلى حد أننا وجدنا آثارها القوية وأصداءها البعيدة لا تقتصر على أدبنا العربي وفكرنا الاسلامي ، وانما تتعداهما إلى الأدب الاوربي وفكره ، وانها لذلك أوحت إلى العديد من الادباء والمفكرين بالكثير من الاعمال الحيوية الناضجة ، يقف في مقدمتها (جحيم دانتي) الذي استوحى صاحبه الكثير الكثير من هذه القصة ومن مصادرها المختلفة كالقرآن والحديث وكتاب المعراج وكتاب الفتوحات المكية لابن عربي :

واذا انتقلنا من العموم إلى الخصوص ، وجدنا شاعرنا الهاشمي يفصل في احداث هذه القصة ، ويطيل الوقوف أمام العديد منها ، لقد قدم شاعرنا صورة متكاملة لأحداث المعراج، ابتداء من مرحلتها الأولى ، حيث طار (ص) من على قبة الصخرة يقوده جبريل عليه السلام :

طار من (ايليا) لاحرك الصخرة ... وطأ ولا الأثير صهيل
قد اليك البراق واهبط إلى الأ ... رض ومر من إليك ياجبريل
واشدد السرج واللحام في الليلة ... يسري إلي ضيف جليل

هذه كانت بداية رحلة محمد (ص) ، فما الذي حدث بعد ذلك ؟

صاح جبريل في السموات بالبشرى ... وماج التكبير والتهليل :
بشر يرتقي من الارض جسما ... ذلك النيل لم ينله نبيل

قم وكن في ضيافة الرب واسمع ... وعِ وانظر هذا المقام الجليل
ساح في العالمين ليلا وفيه ... قصر في مشيه وهو طول (١)

لقد استطاع محمد الهاشمي أن يقدم صورة للوقائع التي مرّ بها الرسول الكريم ، ولعل تصوير الأحداث يبدو هنا أكثر حيوية ، لأن الشاعر وفر بعض عناصر الصورة الفنية كعنصري الزمان والمكان وعنصر الحركة .ويبدو لنا أن قصة المعراج نفسها قد أعانت الشاعر على توفير بعض هذه العناصر ، وغيرها من عناصر التشويق لما فيها من حيوية وحركة ، ولما تحتويه من الأعمال الخارقة التي عمل الشاعر على تحقيقها بخياله . ويتابع محمد الهاشمي أحداث هذه السياحة النبوية الشيقة واصفاً السرعة التي تمت بها ، والنور الذي توهج منها ، ذاكراً البراق الذي حمل النبي (ص) في جمال منظره وجلال قدره فيقول:

وأسرع من ضياء في فضاه ... ومن تلميح خاطرة ببال
ونور غاب في نور عظيم ... ضياء الشمس من حجب الهلال
حملت على البراق – له شماس – (٢) ... أكان العجز فيه عن احتمال
وما شمس البراق عليك إلا ... لرؤيته الجمال مع الجلال

ثم يتابع الكلام على موكبه الفخم ، فيذكر ملاقاة الكروبيين* له ، وترحيبهم بشخصه واحتفالهم به :

و لاقاك الكروبيون بشراه ... على قدس بشأنك واحتفال (٣)

ويصحبه في وصف رحلته الميمونة ، حتى يصل معه الى أبواب السماء فيذكر مالقيه من ترحيب ويقول :

ودنا من مقامه وتجلى ... لك هذا المجد الذي لا يزول
دق باب السماء قيل من الساري ... فقال الأمين هذا الرسول
قيل نعم المجيء جاء ولما ... بلغ السبع قيل تم الرحيل (٤)

---

(١) ديوانه : ٣٧٢.
(٢) الشماس : الفرس الجموح .
(٣) ديوانه : ٣٦٦ .
(*) الكروبيون : هم سادة الملائكة منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل .
(٤) ديوانه : ٣٧٥ .

وعلى الرغم من أن الشعر ، ليس من وظيفته تفصيل الجزئيات ، ومتابعة الأحداث ، الا أن الشاعر قد حرص على ان يشير الى بعضها إشارات سريعة ، كتخفيض عدد الصلوات الى خمس، كما أشار الى ما يروى من أن الحجر الأسود الذي في الكعبة أصله من السماء وغير هذه وتلك مما لا حاجة الى تفصيلها .

ولا شك أن الشاعر قدم لنا تصويراً مقتضباً لمشاهد رحلة الرسول (ص) وعلى الرغم من أن ما وفره في وصف هذه الرحلة ، يفوق ما وفره في وصف رحلة الاسراء وهذا أمر طبيعي تفرضه طبيعة كل من الرحلتين — ألا أن الملاحظة السابقة التي تجعل من هذا الوصف سرداً للاحداث يخلو من عنصر الحركة الفنية كما يخلو من عنصر التشويق ، لاتزال قائمة ، وان لم تكن بالقدر الذي وجدناه في قصة الاسراء .

ومما تجدر ملاحظته طغيان العاطفة الدينية بين الحين والحين، وهي عاطفة تنبىء عن صدق هذه المشاعر الدينية في نفس الشاعر ، وتؤكد ايمانه العميق بهذه القصة وبأحداثها ، كأن يعتبر الشاعر هذه المعجزة وأمثالها من الخوارق التي ينهزم امامها العلم ، وتضيع تجاهها قواعده وأصوله ، فلا يستطيع لها تعليلاً أو تفسيراً :

خرق العلم خالق العلم والجهل ضاعت قواعد وأصول

كما يرى ضياع حساب الأفلاك ، وقياسات المهندسين حيال هذه المعجزات الالهية .

لاقياس المهندسين ولا حد لها فرسخ يقاس وميل
وحساب الأفلاك صفر من الأعداد صفر أقل منه القليل (١)

في هذين البيتين يدلي الشاعر برأيه ؛ فهو يرى العلم بنظرياته وقواعده وأصوله ،لايقف أمام خلق الله ومظاهر الطبيعة ولا يستطيع لها تفسيراً أو تعليلاً.

وعلى الرغم مما أثارته قصة الاسراء والمعراج من تخيل في نفوس الشعراء المتقدمين ،وما وما يمكن أن توحي به لشعرائنا المحدثين ، فإن غياب العمق الفكري المنشود ، والقيم الفنية المطلوبة ، التي يمكن بفضلها تحقيق الخلود لهذا الحدث المثير في الأدب ، قد أحال هذه القصة عند الكثيرين إلى مجرد أخبار تسرد أو أحداث تقرأ . لقد وقفنا في شعر محمد الهاشمي على العديد من مشاهد هذه الرحلة العجيبة ، وهي رحلة قام بها الرسول الكريم جسماً وروحاً ، وكنا نتمنى ونحن نقرأ هذا الشعر ، أن تهتز فينا العواطف ،

(١) ديوانه : ٣٧٤ .

وتتحرك منا المشاعر ، مع كل صورة ، وازاء كل حدث ، وكان بإمكان الشاعر أن ينقلنا إلى تلك الأجواء النيرة ، ويدخل في قلوبنا ذلك الصفاء الروحي ، مستغلاً ايماننا العميق بما حدث لصاحب الاسراء والمعراج في هذه الرحلة الميمونة ، وكان بإمكانه أن يحقق ذلك أيضاً بما حملته أحداث الرحلة من عناصر مشوقه ، تفوق كثيراً عنصر الخيال الذي يلجأ اليه الشعراء ليتمكنوا بوساطته من تجسيد صورهم ، كما يحققوا مزيداً من الانفعال العاطفي والمشاركة الوجدانية.

من كل ما مر نستطيع القول بأن شعر محمد الهاشمي قدم لنا تصويراً للأحداث وتسجيلا للمآثر ، وتجسيداً للخصال التي تحققت للرسول الكريم (ص) ، وقد حاولنا أن نقدم ذلك مسلسلا تسلسلاً زمنياً ابتداء من ولادته (ص) ، وانتهاء بقصة الاسراء والمعراج . على أن أهم مآثر الرسول الكريم التي تطرق اليها شاعرنا ، والتي تدل على فهم ناضج للشخصية الفذة ، هي مسألة بناء الدولة وما ينطوي على وجودها من شرع ودستور ونظام وقانون ، وقد تم للرسول شيء من ذلك بعد ان استقر وضع المسلمين في المدينة المنورة ، ثم استكمل بقيته بعد فتح مكة . وليس مهماً عندنا أن نؤرخ لهذه المظاهر الحضارية التي تمت على عهد رسول الله (ص) ، انما المهم فيها أنها ارتبطت بشخصيته الفذة وعقليته الناضجة ورسالته الخالدة التي استطاعت أن توحد أمة وتبني دولة وتضع لهما قانونا ودستورا ونظاماً للحياة . ومن هنا تأتي أهمية ذكرها في شعر شاعرنا ، ومن هنا نعتبرها التفاته ذكية تدل على نظرته الدقيقة إلى شخصية الرسول باعتباره رجل دين ورجل دولة ولعل أول مايثير الذهن أن يعتبر الشاعر رسول الله (ص) باني دولة ، بل أنه ليراه بحد ذاته ، دولة تسمو وتعلو على دول العالم كله :

دول تدول وانت وحدك دولة عال لها بين الشعوب لواء

ثم يربط بين بناء الدولة وبناء الأمة على أساس من الوحدة المكنية ، ويرى أن عز الأمة الاسلامية قد تحقق بفضل مؤسسها العظيم :

يبني الرجال بناء جيل واحد ولألف جيل من يديك بناء
أخذت بفضلك مالها من عزة ولها من اسمك لاسمها طغراء

ثم يشير إلى مايجب أن يتوافر لدى حاكم الأمة ، وما يتوقف على اساسها ، ألا وهو العدل الذي باهت به أمتنا الأمم الاخرى كالفرس والروم ، ويربط بين عدله لأبناء أمته ووفائهم له ، ذلك ان عدل الحاكم يستوجب وفاء الرعية :

فـاذا القيـاصـر والأكـاسـر فاتهـا ماتـدعي مـن عـدلهـا الخلفـــاء ،
ملـك رعيتـه القـلـــوب وعنـدهـا عهـد من استقلالها ووفـــاء (١)

ويلاحظ هنا ان الشاعر قد سلسل معانيه تسلسلا منطقيا ، ليصل بها إلى مبررات قيام الدولة على أسس قوية متينة وذلك من خلال ربطه بين الحاكم وبين مايجب ان يتمتع به من خلق قويم وتصرف حكيـم ورباطـة جـأشـ ، وهـو تسلسل مقبـول يقود إلى حقيقة ماكان عليه الرسول الكريم ، وما انتهى بفضله إلى بناء دولة الاسلام العتيدة . وفي مكان آخر يشير إلى الدستور الذي أقامه محمد (ص) ، والذي به يؤكد قيام حكومة العدل ، اذ أن من مظاهر قيام الدولة ، وجود دستور يحتضن فيه الفرد ، وتوضع فيه حدود التصرف ، ويقوم على اساسه حقوق أبناء الأمة :

يامنشيء الـدستـور كـل حكـومة في كـل دستـور سواه بـلاء

كما يشير إلى أثر الدستور في تنظيم حياة الناس وفي حفظ كيانهم وانه — كما يرى الشاعر — سبب في توحيد القلوب ، وقيام الاخاء والتئام الشمل وتحقق التآلف ، بل انه في اقراره دستور الاسلام ، علّم المسلمين معنى الحياة ، وادركوا بفضله القيم المثلى من مثل التعاون والتآخي :

علمتهم معنى الحياة فادركـو أن الحيـاة معـونـة واخـــاء

ويلتفت التفاتة جميلة حين يقرر ان دستور الاسلام هو لكل شعوب الارض ، وانه لايختص بالعرب أو بقريش :

للـنـاس لا للـعـرب أو لقـريشها هـذا البيان الحر والآراء (٢)

وهكذا نجد الشاعر يحلل أحيانا ويفسر أحيانا اخرى ، ويستشهد مرة ثالثة ، وهو يهدف من وراء ذلك كله إلى التأكيد على شخصية صانع الدستور ، التي استطاعت أن تقيم دولة الاسلام على اسس من العدل والمساواة والعزة والمنعة :

وجدير بالملاحظة أن نشير هنا إلى ظهور شخصية الشاعر اكثر من أي مكان آخر ، وهذا يبدو فيما يعلل به قوة الدولة وبناءها ، وواضح فيما يدلي به من أفكار بين الحين

(١) ديوانه : ٢٥٨
(٢) ديوانه : ٢٥٨ .

والحين ، اذ هو لايعتمد في هذه المسألة على السرد والوصف الواقعي — كما هو الحال في أغلب مامر — وانما تظهر شخصيته ظهوراً لاغبار عليه . ويلاحظ ان الشاعر يتحدث عن (دستور) حينا ويتكلم على (النظام) احياناً ،ويشير إلى (التنظيم والتقنين) مرة ثالثة ، ولا أعتقد انه هنا يضع فروقاً كبيرة بين مفهوم ومفهوم،فليس النظام والتنظيم والتقنين، سوى مصدر من مصادر الدستور ، وهو القرآن الكريم ، او ما وضعه الرسول — في المدينة المنورة — في ضوئه .

ان ما يلاحظ هنا هو ربط هذه المفاهيم بسنن الحياة، وحياة المجتمع ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ان الشاعر وهو يتحدث عن النظام الذي فجر ينابيعه محمد (ص) قد ربطه بالشرع فقال:

فجرت ينابيع النظام شريعة عن كل ماء في الحياة معين

كما ربط ما أسماه (التنظيم والتقنين) بالشرع أيضاً، وذلك بقوله :

شرعت معالم حكمة وفضيلة ومصادر التنظيم والتقنين (١)

والحق أن الشاعر في هذا المجال ، استطاع ان يربط القوانين والأنظمة من جهة وبين حياة الناس ومصير الأمة من جهة أخرى وأفضل منه أنه كشف عن أهميتها في حياتهم وأثرها في نفوسهم وتأثيرها في تقدمهم ، وهو ربط يدل على مهارة ، وكشف ينم عن فهم عميق لمهنة رجل القانون، كما أنه صدى لهذه الوظيفة التي شغلها عدداً من السنين ، ومما يؤكد ما ذهبنا اليه، استمراره في الكلام على أهمية القوانين الاسلامية، وأهميتها ، ثم تعليله لأسباب الفوضى في المجتمع، والتي هي غياب الانظمة، وفقدان القوانين ، ثم بيانه لأهمية النظام واثره في حفظ الجماعة الانسانية وحياتها :

الناس مقتبسون عنكم كلهم صور النظام وخطة التنظيم

سرقوا الشرائع وهي أصل نظامهم قطعت يمينك سارقاً بيمين

الناس فوضى والنظام ارادة يملي القوي بها على الموهون(٢)

ان الهاشمي هنا لا يتحدث بلهجة شاعر، بقدر ما يتكلم بلغة رجل قانون ، درس الشرع الاسلامي ووقف على أصوله ومنابعه، وعرف قوانينه، كما عرف اضافة لذلك ،القوانين المستعارة ، وحكم بين الناس من خلالها، وشاعر كهذا لابد ان نفترض فيه فهماً لمهنته ، ومعرفة بقوانينها، سواء أكانت اسلامية ام وضعية،وهذا لايهمنا الا بالقدر الذي نستشف

(١) ديوانه : ٣٦٢.

(٢) ديوانه : ٣٦٢

منه تمكنه في شعره، من ربط ما تمخض عنه الاسلام من قوانين وانظمة وشرائع بشخصية محمد (ص)، وهي قوانين استطاع الشاعر ان يسير في تعليلها، وبيان أهميتها، في طريق سليم تماماً، هيأته له خبرته في القضاء لفترة طويلة. لقد استطاع الشاعر في هذا الربط ان يكشف عن الجوانب الدقيقة الفذة في شخصية الرسول (ص)، كما استطاع ان يبين فضل هذه القوانين الاسلامية على المجتمع البشري، وحفظها لحياة الشعوب، فضلا عما وصل اليه في بيان اسبقية القوانين الانسانية العادلة، المتمثلة بالاسلام. وعلى الرغم من ان شعر الهاشمي قد قصر في تحليل العديد من المواقف والمشاهد التي حدثت لمحمد (ص)، وأنه لم يستطع ان يكشف عن عوالمها البعيدة، وذلك حين نقلها أحياناً نقلا واقعياً، لا يثير في نفس القارىء فضولا او يحدث هزة، أقول على الرغم من هذا الذي لمسناه في وصف الهاشمي، وفي بعض عرضه للأحداث، فاننا نشعر بالارتياح إزاء عرضه لمسائل أخرى في الوصف، او التحدث عن محمد منظماً ومشرعاً وذلك بما امتلك من حس دقيق في فهم هذه المسائل، وتعليلها، وتحليلها في ضوء فهمه وممارسته لوظيفة القضاء.

مراجع البحث

القرآن الكريم

ابن الفارض سلطان العاشقين :محمد مصطفى حلمي. القاهرة ١٩٦٣

التصوف :نيكلسون. القاهرة ١٩٤٧

تهذيب سيرة ابن هشام :عبدالسلام هرون. القاهرة ١٩٥٥

ديوان محمد الهاشمي البغدادي : جمع واعداد عبدالله الجبوري . بغداد ١١٧٧